

الوعي القومي في شعر احمد رفيق المهدوي

١٩٦٢ - ١٨٩٨

المدرس المساعد
حامد مردان السامر
جامعة البصرة - كلية الآداب

يمثل الأدب الليبي المعاصر تحولا مهما على صعيد الحركة الثقافية الليبية المعاصرة، فقد حاول العديد من الأدباء والشعراء أن يضعوا الأساس الأول في صرح الثقافة الليبية من خلال طرح العديد من النتاج الإبداعي الذي تمثل في العديد من النصوص الشعرية، وقد استطاعت هذه النصوص أن تتخطى الحدود الإقليمية الضيقة إلى فضاء أدبي أوسع وأكثر شمولية، وبذلك استطاع الأديب الليبي أن يؤسس أركان حركة أدبية واسعة استطاعت أن تحفر بصماتها على صفحات التاريخ الأدبي، وربما كانت المدرسة الكلاسيكية في الشعر الليبي على رأس هذه الحركات الأدبية التي تمثلت في المنجز الإبداعي للشعراء (احمد رفيق المهدي ، واحمد الشارف ، واحمد قنابة) وغيرهم من الشعراء الذين تأثروا بالاتجاه الكلاسيكي السائد في العالم العربي والذي كان يمثلته الشعراء حافظ إبراهيم واحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، ويرى بعض الباحثين إن هناك ملامح مشتركة تربط بين أصحاب الاتجاه الكلاسيكي في العالم العربي وبين هؤلاء الشعراء الليبيين، وهناك سمات مشتركة تجمع بينهما، ولعل من ابرز هذه السمات هي (الارتباط بقضايا العصر والأحداث العامة، ومحافظة على تقاليد القصيدة العربية مع ضعف التجربة الذاتية، والتقريرية والأسلوب المباشر)* (1).

وهذه السمات الشكلية والمضمونية التي توصل إليها الباحث من الممكن أن تكون سمات عامة لا تميز الاتجاه الكلاسيكي عن غيره من الاتجاهات الشعرية التي عرفها الأدب العربي المعاصر ، فالتقريبية والمباشرة وضعف التجربة هي من العيوب الفنية التي تعاني منها القصيدة العربية، ولعلها تكون موجودة في الاتجاه الكلاسيكي ، وتكون موجودة أيضا في مدرسة الديوان كما تجدها واضحة في شعر عباس محمود العقاد ونجدها كذلك عند بعض شعراء مدرسة أبوللو. فأعلام الاتجاه الكلاسيكي في العالم العربي (برزت في أشعارهم نغمة طالما سمعناها ، وصورا مرت بنا كثيرا واستوقفتنا مضامين لا علاقة لها بحاضرنا، بل تمثل ماضيا سحيقا. وتظهر خصائص مجتمعات قديمة لا تمت إلينا بصلة)*(2)

فالشعر الكلاسيكي يصدر عن رؤية تقليدية محضة لا تمثل الواقع المعاصر الذي ينتمي إليه الشاعر ولا تحاول أن تطرح مضامين جديدة توضح موقف الشاعر من الأحداث الواقعية التي عاش الشاعر في عزلة عنها، فقد تبنى أصحاب هذا الاتجاه القضايا الشكلية في القصيدة وتمسكوا بالأسس والأنماط التراثية التي تشكل فضاء القصيدة العربية وبنائها التقليدي المتوارث عبر الأجيال، فقد التزموا القافية والروي من بداية القصيدة حتى نهايتها، ولم يحاولوا التمرد على العروض العربي، وتمسكوا بالوحدة الجزئية للقصيدة التي تعد البيت الشعري وحدة بنائية مستقلة، واستطاعوا المحافظة على اللهجة الخطابية واللجوء إلى الصور والقوالب الجاهزة والألفاظ التقليدية التي تنفصل أحيانا عن سياقها الحضاري الذي تكتب فيه، وبذلك ظلت القصيدة التقليدية قصيدة منبرية تنتمي إلى العصور التاريخية أكثر من انتمائها إلى الواقع الذي ينتمي إليه الشاعر ، ومن هنا حققت القصيدة اغترابها الزمني وانفصالها عن الوعي الذي يصوغها، وأصبحت القصيدة تنتمي للتاريخ أكثر من انتمائها للحاضر، ويمكننا القول أن القصيدة الكلاسيكية هي نص تراثي يكتب بحروف معاصرة وشعر هذا الاتجاه (كان بمثابة انفتاح واسع على الموروث الشعري العربي بكل عصوره وشعرائه بلا فارق أو تمييز، ومن ثم أصبحت القصيدة العربية مزيجاً معقد العناصر، مستمدة من أكثر من مصدر، وأكثر من أصل وأصبح الشاعر التقليدي نفسه كالصائغ الذي يصوغ قصيدته من عناصر ومواد بالغة التنوع)*(3)

فالتناص الشعري على مستوى النص ليس عيباً فنياً يسجل على ذلك النص، لان كل منجز إبداعي هو عبارة عن مزيج من تراكمات نصية ورؤى تراثية سابقة بعد أن تخضعا للانتقاء والتأليف* (4)، ولكن الخل يكمن في عدم قدرة الشاعر على إذابة هذه التراكمات النصية في نسيجه الشعري الخاص ، ولذلك ظل النص الشعري الكلاسيكي بناءً تقليدياً مفككاً في بعض الأحيان .

وينتمي هؤلاء الشعراء (المهدي، والشارف، وقنابة) إلى هذا الاتجاه الكلاسيكي الذي كان سائداً في العالم العربي وتأثروا بالمعطيات الفنية التي طرحها ذلك الاتجاه على صعيد الساحة الثقافية، ولذلك تعرض هؤلاء الشعراء إلى انتقادات فنية مثلما تعرض إليها أصحاب الاتجاه الكلاسيكي في العالم العربي، وبالرغم من الانتقادات التي توجه إلى شعر (المهدي، والشارف، وقنابة) ألا أن هؤلاء قد أضافوا الكثير إلى الأدب الليبي فقد (كانت هذه الإضافات التي قدمتها هذه المدرسة _ رغم ما يمكن أن يؤخذ عليها فنياً _ إضافات حاسمة، فقد برزت للشعر الليبي ملامح لم تكن واضحة ، ووضعت العلامة في طريق تطوره ونموه، فقبل هذه المدرسة لم يكن للشعر تاريخ في بلادنا) * (5)

ومن هنا نرى أن البداية الحقيقية للأدب الليبي المعاصر ظهرت عند ظهور هذه المدرسة الكلاسيكية وأعلامها، وان كانت هناك محاولات فردية خجولة ولكنها لا ترقى إلى تشكيل رؤية فنية أو اتجاه فني، وإنما ظلت أصواتاً منفردة لم تشكل ظاهرة فنية يمكن الإشارة إليها .

فهذه المدرسة بما تحمله من سمات حاولت أن تؤسس بداية الحركة الليبية الأدبية المعاصرة ، واستطاع رواد هذه المدرسة بما يمتلكون من مواهب أن يؤرخوا لظهور التيارات الأدبية والفكرية التي جاءت بعدهم وأصبحوا بحق نقطة فاصلة في التاريخ الأدبي الليبي المعاصر .

وسوف نتعرض لأبرز رواد هذه المدرسة وهو الشاعر احمد رفيق المهدي ونحاول أن نسلط الضوء على إرهاصات الوعي القومي في شعره ، والمهدي ينتمي إلى الاتجاه الكلاسيكي في الشعر العربي الحديث، وقد تأثر تأثراً واضحاً بأبرز أعلامها (شوقي، وحافظ، والزاوي، والرصافي، والكاظمي) ، وارتباط الشاعر بهذه المدرسة واضح الدلالة من حيث البناء الفني للنص الشعري، ويتضح ذلك أيضاً من خلال دعوته إلى تجديد

القصيدة العربية متأثراً بذلك بالشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي كان المهدي يترسم خطاه في منهجه التجديدي ، بالرغم من أن الشاعر اطلع على نتاج المدرسة الكلاسيكية الأناضولية ووجد نفسه يميل إلى الاتجاه التجديدي الذي كان يترجمه الزهاوي ، ويعلم الأستاذ التليسي ذلك حين يرى أن الشاعر (اقتنع بعد تجربته الأولى أن البساطة التي يدعوا إليها الزهاوي هي أقرب إلى نفسه وأدنى إلى قدرته من هذه الصياغة الموسيقية المتينة التي يتميز بها شوقي) * (6)

بينما يرى باحث آخر أن ما أغرى رفيق إلى هذا الاتجاه هو محاولته النزوع إلى التجديد والابتكار وما هو معروف عن الشاعر الزهاوي من إبداعات جديدة وابتكارات طريفة * (7)

فالتشابه الأسلوبى هو الذي أغرى المهدي بتبني الاتجاه التجديدي في القصيدة العربية، ولذلك نجد أن نزعة التجديد الشعري كانت تراود المهدي وتملاً فكره وتعاقد وجدانه الشعري، وبالرغم من أن المهدي كان معاصراً لأعلام المدرسة الكلاسيكية قارئاً لهم ومتأثراً بهم ومساهمياً معهم في إثراء القصيدة العربية ، بالرغم من ذلك كله ، إلا أن محاولته التجديدية التي كان الشاعر يطمح إليها في مشروعه الشعري كانت محدودة للغاية ولم تأخذ إطارها الفني الواسع، وهي كانت دعوة للتجديد أكثر من كونها ممارسة تجديدية واقعية على مستوى النص الشعري، ومن هنا نرى أن المهدي لم يخرج في مشروعه التجديدي عن إطار المدرسة التقليدية ولم يتخذ التجديد عنده خطأ واضحاً بارز الملامح، أو رؤية فنية مكتملة السمات والأبعاد ، أي لم يكن التجديد عنده قضية فكرية أساسية ، فالتجديد لم يتجاوز (محاولة تنويع القافية والتخلص من القيد الذي تفرضه القافية الواحدة على الشعر، ومع ذلك فلم يكن جاداً في التقيد بهذه الدعوة فسرعان ما هجرها إلى البناء العمودي للقصيدة سواء في ذلك قصائده الوجدانية أم السياسية) * (8) .

وقبل التطرق إلى إرهابات الوعي القومي عند المهدي لابد لنا من التعرض لظهور التيارات القومية في العالم العربي والعوامل المؤثرة التي ساعدت على وجودها وتكوينها على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي .

فقد شهدت الساحة السياسية العربية ظهور العديد من الاتجاهات القومية التي كانت تنادي بالحرية والاستقلال من نير الاستعمار الغربي، وشعرت هذه الاتجاهات بخطورة التجزئة

في ظل الهيمنة الغربية وضياع الهوية الثقافية والحضارية للأمة ، وقد كانت هذه الأصوات تنادي منذ زمن بعيد بالوحدة والتحرر من كافة أشكال الاحتلال ، وربما كان صوتها خافتاً أيام الدولة العثمانية ، ولكن بظهور الاستعمار الغربي وهيمنته على العالم العربي وتقسيمه له وقمع حركات التحرر العربي، كل هذه الأحداث وضعت هذه الجماعات أمام التحدي والمواجهة التاريخية .

وبدأت طلائع الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حيث يرى البعض أن من ظواهر الوعي القومي واليقظة القومية هو محاولات بعض رموز الفكر السياسي العربي إلى إنشاء جمعيات سياسية تطالب بحقوق العرب السياسية الكاملة في ظل الهيمنة العثمانية المطلقة على المجتمع العربي ، وكذلك إيقاظ الشعور القومي بخطورة المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها الأمة، ومن أهم هذه الجمعيات (جمعية حفظ حقوق الملة العربية) التي نشرت نداء إلى العرب من مسلمين ومسيحيين تطالبهم بالوحدة من أجل مواجهة السيطرة العثمانية على مقادير الأمة* (9)

ثم توالى الجمعيات السياسية في النشوء ، ونذكر منها (جمعية الإخاء العربي) التي تأسست في الأستانة عام (1908) ثم جمعية المنتدى العربي والجمعية القحطانية اللتان تأسستا عام (1909) والجامعة العربية (1910) والجمعية الإصلاحية (1912) وجمعية العهد (1913)* (10) .

وكان دور هذه الجمعيات يتركز على الاهتمام بالحقوق السياسية والاجتماعية للأمة، وكذلك مطالبتها بالحقوق الدستورية، قبل المطالبة بإقامة البرلمان العربي، وإنشاء الصحف والمجلات التي كانت تنشر باللغة العربية وتكون غير خاضعة للسلطنة العثمانية، ومحاولة تغيير المناهج التعليمية التي كانت تدرس باللغة التركية دون العربية، ويبدو إن دور هذه الجمعيات كان دوراً محدوداً للغاية بسبب ضعف الوعي الاجتماعي والثقافي لأغلب الشعوب العربية آنذاك .

وفضلاً عن ذلك فقد رافق نشوء هذه الجمعيات حركة أدبية وثقافية واسعة شملت العديد من الكتاب والشعراء والمفكرين الذين حاولوا بعث الشعور القومي في الذات العربية ومحاولة إحياء تراث الأمة وتاريخها الزاخر، ولعل من هؤلاء (اليازجي، والكواكبي،

ويوسف النبهاني، وأديب اسحاق)، ولم يكد فجر القرن العشرين يثبت حتى كانت الذات العربية تستيقظ من سباتها العميق، وأخذت العاطفة القومية تحرك القلوب المشاعر (11) . وكان للمشاركة الليبية دور بارز في إنهاض الوعي القومي العربي، حين قام عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب بالمشاركة في اجتماعات اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة 1910، وقد ألقى خطاباً جريئاً تعرض فيه إلى نقد السياسة التركية في العالم العربي ومحاولات الأتراك طمس الهوية العربية وأذابتها داخل كيان السلطنة العثمانية، والاستخفاف بحقوقها السياسية والاجتماعية* (12) .

وتطور الوعي القومي تطوراً ملحوظاً بعد السيطرة الغربية على الأمة، فبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، حاولت القوى الغربية تقسيم الكيان العربي إلى مناطق نفوذ غربية، حيث استولت بريطانيا على العراق ومصر والسودان والأردن وفلسطين، بينما سيطرت فرنسا على سوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب، ووقعت ليبيا تحت نير الاستعمار الإيطالي، وقد تم هذا التقسيم ضمن اتفاقية سايكس-بيكو التي وقعتها بريطانيا مع فرنسا، ثم تلا ذلك إصدار وعد بلفور المشؤوم عام (1917) الذي يطمح إلى إقامة كيان مسخ للصهيونية في قلب العالم العربي والذي يعمد إلى تكريس واقع التجزئة بين أقطار الأمة وازدادت المعركة حدة وشراسة مع ظهور الاستعمار الجديد الذي لم يكن استعماراً اقتصادياً فحسب، وإنما كان استعماراً ثقافياً وحضارياً حاول أن يجرد الأمة من كافة مقوماتها الثقافية، والحضارية تحت مسميات وذرائع شتى، فقد جاء الاستعمار من أجل تكريس واقع التجزئة القومية وتشجيع النعرات الطائفية والعرقية من أجل تمزيق المجتمع العربي إلى كيانات ضعيفة يسهل التحكم بها، ثم حاول الاستعمار توجيه الاقتصاد والمجتمع نحو الاعتماد المباشر والكلي على الغرب ومحاولة تبني تقاليده وأفكاره من أجل أن تكون تلك الأفكار والمعتقدات هي البديل الثقافي للوجود الحضاري العربي، وهكذا أصبحت المعركة معركة قومية شاملة، فقد كانت معركة الاستقلال القومي في البدء ثم أصبحت معركة الوجود القومي فيما بعد (*13) .

ولذلك فقد كانت معركة الدفاع منذ البدء معركة الدفاع عن اللغة العربية كونها ابرز مميزات الوجود القومي، وكذلك كانت معركة الدفاع عن الثقافة العربية ومنجزاتها، والتاريخ العربي وبطولاته، وقد بدأت مع بداية النهضة العربية حركة قومية سياسية من

جهة، وحركة ثقافية من أجل إحياء اللغة وتجديد الأدب والفكر من أجل بعث الحضارة العربية وتجديد مقوماتها الأساسية التي تساعد على تكوين الذات العربية الأصيلة وهي تواجه محاولات التجريد الثقافي والحضاري من جهة أخرى* (١٤٠)

ويرى احد الباحثين أن من المناسب قبل كل شيء من أجل التحرر من القبضة الاستعمارية والتوغل الأجنبي الطاعني، أن يقف الفكر العربي مسافة ، أي أن يرفض كل امتزاج وأن يطرح نفسه كائناً أصيلاً آخر، وأن يحدد نفسه انطلاقاً من تأريخه ومن أرائه الذاتية به، فاكتشاف الذات العربية والهوية مرحلة مهمة من مراحل الصراع الثقافي مع الآخر* (١٥)

ومن هنا نرى أن المعركة التي خاضتها الأمة هي ليست معركة تحرر واستقلال ووحدة فحسب ، بل هي معركة تأكيد الوجود الحضاري والثقافي لهذه الأمة التي كانت تقود العالم في مرحلة تاريخية معينة وكانت إشعاعاتها الحضارية ، تغطي جانباً واسعاً من أرجاء المعمورة ، ومن دون أن تلغي هذه الإشعاعات الحضارية الهوية الثقافية للشعوب الأخرى، من دون أن تكون هناك هيمنة فكرية تسلب الآخر حرية الرأي والثقافة والانتماء الحضاري، ومن هنا يمكن الانتباه على العلاقة الجدلية بين الازدهار الثقافي والنهوض القومي ، فالثقافة جزء من منظومة الصراع القومي ، ولذلك فإن الازدهار القومي ، لا بد أن يصاحبه الازدهار الثقافي ، ومن هنا كانت المعركة الثقافية ضد الاستلاب الفكري والخواء الثقافي لا تقل شأناً عن المعركة القومية ، لأن مفاهيم الهيمنة هي ليست مفاهيم سياسية فحسب بل هي مفاهيم شاملة تشمل السياسة والاقتصاد والثقافة والمجتمع ، وأن التصدي لهذه المحاولات لا بد أن يكون تصدياً شمولياً يتبنى كل الأطر الأيديولوجية التي تحاول أن تهيمن على الفكر العربي وتسعى إلى تجريده من هويته الثقافية وانتمائه الحضاري، وما المحاولات التي قام بها الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي ما هي إلا محاولات أيديولوجية شاملة، حاولت أن تسلب الإنسان العربي هويته وتجعله كائناً ثقافياً مقطوع الجذور، ومفرغاً من المحتوى الثقافي العربي، ومحاولة ملئه بثقافات وافدة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرؤى الثقافية والحضارية التي يؤمن بها والتي تشكل شخصيته التاريخية الممتدة عبر جذور التاريخ ، فالفكر العربي وعى منذ اللحظة الجينية الأولى إلى محاولة احتلال الإنسان وفكره قبل احتلال الأرض ، ولازال المخطط

الإيديولوجي الغربي يمارس هذا التفكير وهذه الاستراتيجية حتى بعد رحيل قواته العسكرية من الأراضي العربية .

وفي خضم هذا الصراع الأيديولوجي يبرز دور الفكر والأدب في تشكيل الوعي الاجتماعي لخطورة المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها الشخصية العربية ، فالفكر العربي ظل يحاول منذ اللحظات التأسيسية الأولى في تحريك الواقع الاجتماعي وتوعيته ومحاولة تعبئة الأفراد والجمهير إلى خطورة المرحلة ، ومحاولة خلق مجتمع واع يمارس دوره الحضاري ويواجه كل حالات الإحباط والقنوط والضياع الفكري والنفسي ، فالأديب والمفكر لا يعيش خارج إطار المجتمع الذي ينتمي إليه بل هو في قلب الأحداث يمارس دوره الفكري الرائد في حركة التعبير الثقافي ، وليس الأدب تعبير جمالية خالصة تهدف إلى المتعة الذاتية المجردة فحسب ، بل هو محاولات فكرية جادة لتغيير الواقع الإنساني نحو الأفضل والأكمل ، بالأدب يتسامى بالإنسان إلى القيم الإنسانية النبيلة (وقد برهنت تجربة القرون الطويلة من الأدب الإنساني أن البشرية لا تحتفظ إلا بما ينسجم مع قيمها النبيلة ويساعدها على دفن جوانب النقص فيها وتجاوزها) * (16) .

ومن هنا نرى أن الأدب يقوم بدور مهم في أحداث عملية التغيير الاجتماعي إذا ألتزم الأديب بالقضايا الفكرية التي يعيشها المجتمع ، وبذلك يؤكد الأديب دوره القيادي الفاعل في تشكيل التطور الاجتماعي من خلال إذابة (الأنا) الفردية للأديب في (الأنا) الاجتماعية الواسعة ، من دون أن يكون الشاعر ملزماً بذلك ، فالالتزام كما يراه البعض هو ليس الإلزام أو أرغام الأديب على كتابة الأفكار التي لا يكون قادراً على الاقتناع بها أو الأيمان بضرورتها الحتمية في أحداث فعل التغيير ، وإنما تذكير الأديب بقيمة السلاح الذي يمتلكونه وبقدرتهم على خلق التأثير العاطفي على المشاعر الإنسانية وتوجيه المجتمع إلى الآفات التي يتخبط بها ، كالجهل والتخلف وضياع الذات الثقافية * (17) .

ومن هنا وعى الشاعر العربي خطورة المرحلة التاريخية التي ينتمي إليها فكراً واجتماعياً ، وحاول جاهداً أن يؤسس مفاهيم الوعي الثقافي والحضاري داخل كيان المجتمع العربي الذي كان يعاني انعدام الرؤية الثقافية ، وتخلف الفكر الاجتماعي وضياع الهوية العربية الإسلامية .

في ظل هذه الظروف وعى الشاعر الليبي هذه المخططات الفكرية، وأن كان ذلك الوعي ينتمي للظرف التاريخي وأبعاده السياسية التي كان الشاعر يعيش فيها، فلا يمكن فصل الوعي القومي عن مرحلته التاريخية التي ظهر فيها، أو الحكم عليه من خلال منظور تاريخي يختلف عنه لأن الحكم سوف يكون تعسفياً إذا حاول فصل أبعاد الوعي القومي عن السياق الزمني والتاريخي، فالعلاقة بين الوعي والتاريخ الذي يشكله هي علاقة جدلية متنامية، ومن هنا نرى أن الشاعر المهدي كان يعبر عن أفكاره القومية ضمن حدود الظرف التاريخي الذي عاشته الأمة والذي شكّل في ذهن الشاعر أبعاداً قومية مهمة يمكن رصدها في ديوان الشاعر من خلال العديد من النصوص الشعرية .

وقبل التطرق إلى النصوص الشعرية التي تحمل مضامين قومية ، لابد من التعرض باقتضاب إلى الحياة الاجتماعية للشاعر التي نرى تأثيرها الواضح في صياغة وعي الشاعر وتشكيل رؤيته الثقافية التي كان يتعامل بها مع الأحداث التي عاشتها البلاد العربية . أبصر الشاعر النور في مدينة (فساطو) وهي إحدى مدن الغرب الليبي عام 1898 ف وكان والده رمزاً من رموز السلطة العثمانية آنذاك، فقد كان يشغل منصب قائم مقام المدينة، ولذلك كان الشاعر ينحدر من عائلة موسرة كانت تحظى بمكانة سياسية واجتماعية مهمة في ذلك الوقت، وربما أدت دوراً سياسياً بارزاً في صياغة الأحداث السياسية في تلك المدينة، وتمتعت بالمكانة الاجتماعية المرموقة اللانقطة بها، وهذا المركز الاجتماعي قد هيا للشاعر فيما بعد الإطلاع على ثقافات متنوعة شكلت وجدانه الشعري وشخصيته الأدبية ووعيه القومي . * (18)

وقد نشأ الشاعر في مسقط رأسه (فساطو) ردها من الزمن ثم أنتقل أبوه إلى مدينة (نالوت) وهي مدينة تقع في أقصى الجبل الغربي، وكان هذا الانتقال هو تغيير الموقع السياسي الذي كان يتمتع به والد الشاعر ، فرجال الإدارة في ذلك الوقت كانوا يتبعون إلى سلطة الوالي العثماني الذي يكلفهم بأداء الواجبات الإدارية والانتقال من مكان إلى آخر حسب مقتضيات الأحوال السياسية والإدارية آنذاك، وبقي الشاعر في (نالوت) مدة سبع سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم الذي قد بدأ في حفظه في مسقط رأسه، وبعد ذلك أنتقل أبوه إلى مدينة مصراتة ، فدخل الشاعر المهدي المدرسة التركية فيها وتلقى دروساً في اللغة الفرنسية

واللغة التركية الت] كانت لغة التعليم في ذلك الوقت، ثم أنتقل الشاعر مع والده إلى مدينة الزاوية الغربية وحصل على الشهادة الابتدائية في مدينة الزاوية * (19) ومن هنا نرى أن هناك ثلاث مراحل أولية في حياة الشاعر شكلت وعيه الثقافي، فقد بدأ تعليمه في (فساطو) وتابع تعليمه الابتدائي في مصراته وأتمه في مدينة الزاوية ، ويبدو أن الحياة السياسية التي كان والده ينتمي إليها لم تكن مستقرة في ذلك الوقت ويتضح ذلك من خلال انتقاله من مدينة إلى أخرى في فترة وجيزة ، وعند وقوع الاحتلال الإيطالي عام 1911 كان رفيق في مدينة الزاوية الغربية ، إذ ذكر الشيخ الطاهر الزاوي (إن والده كان موظفاً بمدينة الزاوية التي التحق بمدرستها وحصل فيها على الشهادة الابتدائية التركية وكان التعليم باللغة التركية لأنها اللغة الرسمية للدولة ، ولما احتلت طرابلس سنة 1911 كان والد رفيق موظفاً بالزاوية الغربية برتبة قائم مقام) * (20) ثم تنقطع أخبار العائلة حتى هجرتها إلى الإسكندرية في مصر عام 1912 ، أي بعد عام واحد من دخول القوات الإيطالية، وربما كان السبب في ذلك هو الاضطهاد السياسي الذي تعرضت له البلاد أبان الغزو الإيطالي، وربما كان الاضطهاد أشد مرارة وأكثر قسوة على رموز الحكم والسلطة إثناء الحكم العثماني ومنهم عائلة الشاعر التي كانت تتمتع _ كما ذكرنا _ بنفوذ سياسي مميز أيام الحكم الثماني ، ومحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى غفلت المصادر الأدبية والتاريخية عن ذكرها والإشارة إليها، وفي الإسكندرية تلك المدينة الحاملة الواقعة على البحر عاش الشاعر عصراً جديداً وحياة مختلفة عن الحياة التي كان يعيشها سابقاً ، فالإسكندرية في ذلك الوقت كانت بيئة ثقافية وأدبية مزدهرة ضمت العديد من الأدباء والمفكرين ، من أمثال عبد الرحمن شكري أحد أبرز رواد حركة الديوان، وكذلك خليل شيبوب وعبد اللطيف النشار وبيرم التونسي الذي ارتبط بعلاقة صداقة مع الشاعر المهدي ، فضلاً عن ذلك كانت الإسكندرية تضم العديد من المدارس الحكومية منها : رأس التين ، والعباسية، ومدارس الجمعية الخيرية الإسلامية * (21) وكذلك وجود المجالات العديدة المختلفة الاتجاهات وحلقات الدرس التي كانت تضم الكثير من العلماء والفقهاء ، وفي هذه الأجواء الفكرية أخذ رفيق المهدي يتلمس طريق العلم ، فدخل إحدى المدارس الفرنسية ثم انتقل إلى مدرسة رأس التين وبعدها إلى المعهد السديني حيث تلقى فيه دروساً في التفسير والبلاغة واللغة والحديث * (22)

وفي هذه المرحلة التاريخية بدأ وعي الشاعر بالتححرر والانطلاق واخذ وجدانه الشعري يتشكل من خلال إطلاعه على الحياة الثقافية في الإسكندرية وإطلاعه على أبرز المتغيرات الثقافية التي حفلت بها الاتجاهات الفنية السائدة في العالم العربي من خلال الأجواء الثقافية التي كانت تحفل بها هذه المدينة، وهذه المتغيرات سوف تؤثر تأثيراً واضحاً على مستوى شعره وتطبعه بطابعها الخاص المميز، وربما تكون هذه المرحلة من أهم المراحل الثقافية والاجتماعية التي عاشها الشاعر المهدي، ولكن المصادر غفلت عن الإشارة إلى الدور الاجتماعي الذي كانت تمارسه عائلة الشاعر المهدي في الإسكندرية، فلا نعرف عن حياة والده شيئاً وما هي الأعمال التي كان يقوم بها في تلك المدينة وما هي الظروف السياسية والاجتماعية التي أجبرته على ترك الإسكندرية وعدم الاستقرار بها !

بعد ذلك عاد الشاعر إلى أرض الوطن عام 1921، بعد إقامة في الإسكندرية دامت سبع سنوات نهل فيها الشاعر العديد من الآداب والمعارف، وأقام الشاعر في مدينة بنغازي وعين فيها معاوناً عربياً للحاكم التركي فيها، وبقي فيها إلى عام 1925 حيث هاجر إلى تركيا للالتحاق بعائلته، ويبدو أن الشاعر في هذه الرحلة كان مكرهاً على مغادرة الوطن، وربما تكون الأسباب سياسية أو اجتماعية، وربما تكون هناك أسباب أخرى مجهولة * (23)

وبعد مرور بضع سنين عاد المهدي إلى بنغازي عام 1934 ليملك فيها سنتين ثم ينفي إلى تركيا عام 1936، وهناك عمل موظفاً في دائرة (اسطنبول، وأدانة) التركيتين، وظل يعمل هناك إلى نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، وبعد هزيمة إيطاليا في الحرب وخروج قواتها من ليبيا، تمكن الشاعر من العودة إلى الوطن ليشارك في الدعوة إلى الاستقلال والوحدة * (24)

ووقف رفيق يدعو إلى الوحدة الوطنية والاستقلال ويدعو الشعب إلى الوقوف في وجه القوة البريطانية التي حاولت تقسيم البلاد إلى مناطق عديدة، وشارك رفيق جمعية عمر المختار في المظاهرات التي جرت عام 1950، والتي كانت تنادي بالاستقلال والوحدة الوطنية، وعلى أثر هذه الأحداث السياسية اعتقل الشاعر وادخل السجن * (25)
ثم يأتي الاستقلال عام 1951، فيتغنى به رفيق ويعلن في مجلس الشيوخ بعد أن فشل في الدخول إلى مجلس النواب عن طريق الانتخاب. (٢٦)

ويستمر رفيق في نقده ذلك العهد وما به من مساوئ ومظاهر انحلال في قالب من النقد اللاذع والسخرية لنواب ذلك العهد ووزرائه ، وعلى الرغم من انضمامه إلى مجلس الشيوخ إلا أنه بقي مجاهداً ومناضلاً من أجل الشعب والدفاع عن حقوقه ولم يثته المنصب الإداري عن ممارسة دوره النضالي في إحداث فعل التغيير الاجتماعي الذي كمان الشاعر يصبو إليه ، وهكذا استمر رفيق بالعطاء حتى وافاه الأجل المحتوم عام ١٩٦٦ على إثر عملية جراحية أجريت له في اليونان وهو في طريق رحلته إلى تركيا .(٢٧)

ويلمس القارئ لشعر المهدي أن الشاعر يمتاز بحس قومي واضح المعالم في شعره ، وقد حاول الشاعر في هذه القصائد أن يواكب الأحداث السياسية المهمة التي مرت بها الأمة ، ويعبر عن تلك الأحداث اصدق تعبير حتى تحول نصه الشعري إلى وثيقة تاريخية تؤرخ حقبة تاريخية حفرت أصدائها الكيان العربي وتركت آثاراً بارزة عليه ، فقد كان الشاعر يحس أحساساً عميقاً بحاضر الأمة ومستقبلها ويستلهم الماضي ضمن رؤية عصرية واقعية تحتل على العمل والاجتهاد وليس مجرد التغني بأجداد الآباء والأجداد ، ومن هنا نرى الشاعر يلتزم القضايا القومية التزاماً صادقاً أسفرت عنه العديد من القائد القومية ، التي كان الشاعر ينادي فيها بالوحدة العربية الشاملة التي هي البديل السياسي للتخلص من السيطرة الغربية والنهوض من حالة السبات العميق الذي أصاب جسد الأمة وفكرها وشل قدرتها على الإبداع والتفكير وممارسة الدور الحضاري القيادي الذي كانت تمارسه في تاريخها المشرق عندما كانت مصدراً من مصادر الإشعاع الفكري والحضاري في العالم .

وارتباط الشاعر بالأحداث السياسية يعبر عن الوعي السياسي الذي كان الشاعر يؤمن به في مرحلة التغيير الجذري التي كان الشاعر يطمح إليها، وشكل ذلك الوعي مساحة واسعة من المنجز الإبداعي للشاعر فلقد (كان ارتباط الشعر بالاتجاهات السياسية مظهرها واضحاً، استنفذ كثيراً من النشاط الفني للشعراء ، بل أن بعضهم قد قصر جهوده عليه)*(28) فالشاعر يستلهم الماضي التاريخي للأمة في معركة المصير والتحدي ونرى ذلك بقوله :

مجدّ تليدٌ ولكن ليس ينفعنا إن كان للشرق أمجادٌ وسلطانٌ
إن لم تكن مثل آباء لنا سلفوا فذكرنا فخرهم عجزٌ وخسرانٌ
مجدّ الأبوة مجدّ كاملٌ فإذا لم نحيه فهو للأبناء نقصانٌ * (29)

وفي هذه الأبيات يدعو الشاعر إلى الإفادة من الماضي العريق للأمة العربية في مواجهة كل محاولات طمس الهوية الثقافية والحضارية للأمة من خلال تبني مفكرها الفكر الغربي الدخيل من أجل تغيير الواقع وقطع كل الجذور التراثية التي تحملها الشخصية العربية ، فالشاعر يحث الأمة إلى بعث حضارتها وتراثها الفكري والإنساني ، ولكن ليس من خلال الفخر والاعتزاز بهما فحسب، بل من خلال العمل والمثابرة والاجتهاد ، وهي المعايير الحقيقية للوصول إلى المشاركة الحقيقية الفعالة في الحضارة المعاصرة بدلا من استهلاك أفكارها وقيمها الوافدة ، وهو في هذا الطرح يعبر بأسلوب بسيط عن آليات صنع الحضارة وأساليب إنتاج الفكر المعاصر ، فالرؤية الفكرية التي يطرحها الشاعر من خلال النص هي رؤية الامتداد الزمني بين الآباء والأبناء ، حين يعلن أن مجد الآباء هو مجد كامل حين يصل إلى الأبناء، ولكنه يتناقص إذا لم يحم الأبناء بأحيائه من جديد وبعثه ، فالتواصل التاريخي بين الأبناء والآباء يعتمد في رؤية الشاعر على استلهام الأسلوب ذاته من أجل بناء الذات العربية المفكرة المعاصرة القائمة على أسس العمل والتفكير والاجتهاد ، والمهدوي أحس أن المعركة مع المستعمر هي ليست معركة سياسية واقتصادية وحسب بل هي معركة شاملة تشمل الثقافة والحضارة والامتداد الزمني لهما عبر التاريخ، وتشمل الذات العربية التي يصوغها التراث الذي تنتمي له .

وينفاعل الشاعر مع قضايا الأمة المصيرية ، ويعبر عنها بأصدق تعبير في العديد من قصائده القومية، وتشغل قضية العرب المركزية ، قضية فلسطين مساحة واسعة في ديوان الشاعر، فالشاعر يعلن عن انتمائه العربي ويشترك الأمة الأحداث المصيرية التي خلفها الواقع الاستعماري ، فيعلن عن رفضه لواقع التجزئة العربية ، ويشجب كل محاولات الاستعمار البريطاني في زرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة ، من خلال وعد بلفور المشؤوم عام 1917 ، وهو مشروع سياسي يهدف إلى تكريس التجزئة ومنع كل محاولة للوحدة ، وخلق حالة الاستقرار في المنطقة ، فيعبر الشاعر بحرقة وأسى عن هذا الواقع الأليم بقوله :

تكفى فلسطين إن شئتَ الدليل على ما كان في عامنا الماضي من النُوب
ضاعت فلسطينُ لا بالسيفِ من يدنا لكنْ بأصبعِ غدارٍ ومنسحبِ
ضاعتْ بأيدي رجال لا مرامَ لهم إلا الحصول على الأموالِ والرتبِ

بوعدي بلفور ألفت بينهم وسعت
بنار فتنها حمالة الحطب
قد فرقنا ومازالت تُفرقتنا
عدوة الشرق والإسلام والعرب (30)

فالشاعر في هذه الأبيات يعبر بألم وحرقة عن ضياع ذلك الجزء المغتصب من الأمة لأن ضياع فلسطين هو ضياع للأمة ، فقد ضاعت بسبب غدر البعض وانسحاب البعض الآخر من المواجهة ، والشاعر كشف عن مكامن الجرح العربي النازف، فهناك أسباب خارجية خلفها الاستعمار البريطاني حين أعطى الوعد المشؤوم لإسرائيل ، وهناك أسباب داخلية داخل كيان الأمة وهو التخاذل وتشردم الوجود العربي على الصعيد الجغرافي والسياسي وتغليب المصالح الذاتية على المصالح الجماعية، فأختلف العرب على حقهم بينما اجتمع الغرب على الباطل، وهذه المعادلة المأساوية في تاريخ هذه القضية .
ومن هنا نرى أن الشاعر يعبر عن الدور الذي لعبه الاستعمار البريطاني في تفريق شمل الأمة العربية والإسلامية إلى أشلاء متناثرة ثم محاولة زرع الكيان الصهيوني داخل الجسد العربي من اجل تكريس واقع التجزئة وعرقلة كل محاولات الوحدة بين أجزاء الوطن الواحد ، ويتابع الشاعر مشروع القومية الذي يتمحور حول القضية المركزية فلسطين في نص آخر ومن زاوية أخرى فنراه يقول :

يا عامُ تقبلُ والحوادثُ جمّة
في الشرق يوشك أن يشبّ ضرامُ
هذي فلسطين العزيزة جرحها
دام يكابد داءه الإسلام
لله من كبد العروبة فلذة
بالسيف يغصب حقها وتضام
حق كضوء الشمس غيم حوله
من وعد بلفور الأتيم ظلام
وعد على انجازه قد أجمعوا
رأيًا يخالف حكمه الإفهام
وإذا فلسطين العزيزة لم تذبذ
عنها فإن مصيرها الإعدام
عار على الأحرار أن لم ينقدوا
وطن العروبة والحياة حرام
يا عام والأعوام قبلك أظهرت
لبلادنا ما أضمر الظلام (31)*

وفي هذه الأبيات يتأمل الشاعر سيرورة الأحداث التاريخية التي أحدثت جرحاً غائراً في جسد الأمة ، حين يصور تلك المأساة الإنسانية وذلك الواقع العربي وإسلامي المفكك وهو يواجه أخطر التحديات المصيرية في التاريخ العربي المعاصر ، ففلسطين لازال جرحها ينزف ضمن إطار واقع ساكن عربياً وإسلامياً ودون أن يكون هناك أي فعل تجاه الأحداث، وفلسطين هي فلذة كبد العروبة يغتصب حقها وتشعر بالضيم و الخسف والهوان في ظل واقع سكوني مستلب أضاع الحق العربي الذي كان واضحاً كالشمس وقد حاك وعد بلفور عليه ستاراً من الظلام ، فذلك الوعد الذي أجمعت عليه القوى الغربية هو أجماع يخالف المنطق والبدية، لأن الغرب ليس له أحقية امتلاك هذه الأرض حتى يكون حراً في التصرف فيها وإعطائها إلى من يشاء وكأنها جزء لا يتجزأ من ممتلكاته الخاصة وبالرغم مما يدعيه الغرب الليبرالي من قيم إنسانية لعل من أبرزها حق الشعوب في تقرير مصيرها، والحفاظ على كيانها الذاتي ، وتبقى هذه المأساة الإنسانية شاهداً حياً على ممارسات الفكر الغربي ، وستظل نتائجها مستمرة على مدى التاريخ السياسي العربي لذلك يحث الشعاعر المجتمع العربي على الذود عن فلسطين والدفاع عنها وتحريرها والأ فسوف يكون مصيرها الإعدام والذوال عن مسرح التاريخ السياسي لان السكوت على ذلك ما هو الأ تكريساً للاحتلال و تثبيتاً للواقع وهروباً من مواجهة الأحداث ، فمن واجب الأحرار أن ينفذوا وطن العروبة من دنس الاحتلال .

وتبقى قضية فلسطين ركناً مهماً من أركان الوعي القومي عند اشاعر، وتتماهى أحياناً مع العديد من القضايا القومية الأخرى التي حاول الشاعر أن يعبر عنها في العديد من قصائده، فهذه القضية شغلت بعداً جوهرياً في فكر الشاعر ، ونراها تتردد في أبيات عديدة حين تمتزج مع أحداث سياسية أخرى شهدها العالم العربي عبر صراعه المرير مع الوجود الغربي ، كما نرى ذلك جلياً في قصيدته (أعياد الشرق) التي يصور فيها المهدي جانبا من جوانب الصراع العربي ، ويتناول فيها الثورة التونسية ضد الاستعمار الفرنسي عام 1953 وفي هذه القصيدة يقول :

أما زال للأعياد في الشرق رونقُ وتونس في سيل من الدم تغرقُ
أبعد فلسطين الشهيد عندنا سرورٌ بعيدٍ ؟ نحن بالحزن أخلقُ

فلسطين لولا الغرب ماجاسَ حولها
فلسطين لما يندملُ بعد جرحها
يضامُ هذا الشعبُ المطالبُ حقّة
شقيقتنا بنت العروبة تونس
ألائيها الشرقُ أنتبسه أن تونساً
إذا لم تدافع كتلةً عريضةً
ويتحدّ الشرقُ الضعيفُ فأنته
أحذركم يا قوم من أصدقائنا
فأني أرى أشياء لو قلتُ أنها

لشدّاذ إسرائيل شعبٌ ملفقٌ
وهاهو في الخضراءِ آخر يفهقُ
ويعدمُ رمياً بالرصاصِ ويشنقُ
تقلّب في جمر الطغاة وتحرقُ
عليها جميع الغرب بالجورِ مطبقُ
يقامُ لها ميزانها حين تحنقُ
على ضعفه بالأتحادِ يوفقُ
وأن أسرفوا في حبهمّ وتملقوا
تريبُ لقال الناسُ أني محنقُ (٣١)

وفي هذه الأبيات يطرح الشاعر تساؤلاً عن جدوى الأعياد التي تعيشها الأمة وهي تعاني التمزق والفرقة والتخلف عن ركب الحضارة ، فالعيد الحقيقي في رؤية الشاعر يكمن في الخلاص من سيطرة الاستعمار ونيل الحرية والاستقلال ، وطموح الأمة في تحقيق الوحدة الشاملة ، فالشاعر يرى أن عنفوان الأمة ينطوي في وحدتها الجغرافية عندما تذوب في كيان واحد ، وهذه الرؤية نجدتها تتكرر كثيراً في قصائد الشاعر ، وهذه الأبيات تؤكد وحدة الانتماء العربي الذي كان المهدي يدعو إليه دوماً حين يربط أحداث الأمة وهي تواجه الواقع ذاته، فهذه المقارنة بين الأحداث السياسية أراد الشاعر من خلالها أن يوصل الرسالة إلى كل المتقنين العرب مؤداها أن الأحداث السياسية التي تعاني منها الأمة هي واحدة وان اختلف الاستعمار وأساليبه في السيطرة على الشعوب ، فتونس تغرق في دماء أبنائها المجاهدين ، وفلسطين تعاني من القتل والدمار والتهجير ، ولولا الاستعمار الغربي لما أستطاع شذاذ اليهود بتكوين دولة لهم على أرض فلسطين ، بعد أن طردوا سكانها الأصليين واغتصبوا أرضهم ، هذا الجرح العربي لن يندمل بعد حتى ظهر جرح جديد في تونس الخضراء وهي تتقلب في جمر الطغاة ، فالذي يحدث في الشرق العربي هو ذاته يحدث في المغرب مع اختلاف بعض الأساليب السياسية بين الاستعمار البريطاني والفرنسي ، فتونس ثارت تريد الاستقلال من الاستعمار الفرنسي وخاضت معركة دامية سقط فيها العديد من أبنائها الأبرار ، بالرغم من الفرنسيين هم أول من نادى بالحرية ، والإخاء، والمساواة، وهي أبرز أهداف الثورة الفرنسية ، ولكن يبدو أن

النظرية شيء والممارسة الواقعية شيء آخر ، ويتساءل الشاعر كيف للإنسان الذي يؤمن بالحرية يجور على حرية الآخرين ويسلبها منهم ويفرض وجوده بالقوة عليهم ، فالحرية هي مفهوم كلي شامل لا يمكن تجزئته حسب الأهواء والمصالح الذاتية ، وبعد ذلك ينبه الشاعر الشرق العربي على مأساة الشعب التونسي الذي أطبقت عليه قوى الغرب الاستعماري ويدعو العالم العربي إلى الاتحاد وتنظيم الجهود السياسية حتى ولو كان ذلك الاتحاد ضعيفاً، ويحذر الشاعر الشرق وبعض الدول العربية من الركون إلى بعض الدول الغربية التي تتملق ظاهرياً حيناً وتحوك المؤامرات السياسية د هذه الأمة حيناً آخر .

فالمعركة الحقيقية هي التي تخوضها الأمة من الداخل دون أن تنتظر عوناً من القوى الخارجية التي لا تراعي في ذلك سوى مصالحها الذاتية في المنطقة العربية ، ولا تكثرث لما أصاب هذه الأمة من ويلات ودمار وتجزئة ، فالشاعر في أغلب قصائده القومية يركز على هذه الرؤية للأحداث السياسية التي مرت بالعالم العربي لأن المعركة القومية تبدأ من الذات العربية التي يجب أن تسعى إلى التحرر أولاً من كافة أشكال الهيمنة والاستلاب وعدم التأثير بالتيارات والمذاهب السياسية السائدة في العالم لأنها تيارات لا تعالج مشاكل الواقع العربي ولا تضع الحلول الجذرية لمعالجة مشاكله الذاتية، فكل مجتمع له خصوصيته التي يختلف بها عن المجتمعات الأخرى، وما ينفذ لمجتمع معين قد لا يكون بالضرورة نافعا لمجتمع آخر ، ومن هنا أدرك المهدي أن سر قوة هذه الأمة وديمومتها يكمن في داخلها لو حاولت أن تكتشف ذاتها وتبحث عن هويتها الحقيقية التي تميزها عن الآخرين، دون أن يعني ذلك انغلاقها الذاتي وتوقعها داخل إطار أيديولوجي ضيق لا تقوى على الإفلات منه ، ولذلك أدرك الشاعر في وعيه القومي أن قوة هذه الأمة مكونة في أعماقها ، وهذا ما توضحه القصيدة (من ليبيا إلى مصر) التي نظمها الشاعر عند تأميم قناة السويس وجلاء القوات البريطانية من الأراضي المصرية ، وفيها يطرح الشاعر رؤيته القومية الداعية إلى الوحدة بين الأقطار العربية ، ويقارن بين الأحداث السياسية المعاصرة وبين الأحداث التاريخية التي عاشها المسلمون الأوائل ، ونراه يقول فيها :

يا مصر هذا أوان الجد فأتحمدي وجاهدي في سبيل الله واجتهدي
يامصر ماظهر الإسلام منتصرا الأ بماكان في بدر وفي أحد

الحق ينصره صبر وتضحية	لا خوف من قلة الأعداد والعدد
والله لو صدقت في الذود عزمكم	لما أفقرتم إلى عون ولا عدد
لو صح عزم فكل الكون يقهره	فرد ولم يعتمد يوماً على احد
ذودوا عن النيل ولتجر القناة دماً	كالسيل يدفع بالغتاء والزبد
قلب العروبة يشكو ما ألم به	فكيف لا يتأثر سائر الجسد
عار على دول في الشرق يجمعها	دين وتشقى برأي غير متحد
عدوة الشرق والأسلام ما فتئت	تفت بالدس والتفريق في العصد (32)

وفي هذه الأبيات يحاول الشاعر أن يستلهم الماضي العريق لهذه الأمة المتمثل بالإسلام، ويقارن بين الأحداث السياسية المعاصرة وبين الأحداث التاريخية التي شهدتها الإسلام والمسلمون ، ويدعو الشعب المصري إلى الوحدة فقد حان وقت الجد، ويدعو الشاعر كذلك إلى الجهاد في سبيل الله من أجل الدفاع عن الوطن والاستقلال والتحرر الذي حققته مصر على يد الضباط الأحرار عام 1952 ، وقد أدرك هؤلاء إن الاستقلال السياسي لا يكون كافياً إلا إذا كان مقترناً مع الاستقلال الاقتصادي، ولذلك حاولوا تأميم قناة السويس لتمويل بناء مشروع السد العالي ، وأغضب هذا القرار كلا من بريطانيا وفرنسا فقامتا بشن عدوان ثلاثي بالاشتراك مع إسرائيل على مصر ، وحاول المهدي أن يساهم في تشكيل وعي الجماهير عندما نظم هذه الأبيات التي يحث فيها المصريين على الصمود والثبات والتحدي ، من أجل أثبات الذات العربية المسلمة وتحديد إطارها الفكري والثقافي الذي يختلف مع الآخر ، ولذلك حاول الشاعر استلهم تراث الأمة ومخزونها العقائدي الذي شكل صيرورة الذات العربية وحدد أبعادها الحضارية، فهو يعود إلى التاريخ من أجل إعطاء ديمومة الحاضر من خلال التذكير بغزوة بدر وغزوة أحد حين أنتصر المسلمون فيهما بقوة الأيمان وبقوة المبادئ المترسخة في أعماق الذات والتي لا تستطيع تغييرها أقوى جيوش العالم ، فأهم مبادئ المعركة أن نكون نؤمن أيماناً حقيقياً بالمبادئ التي نناضل من أجلها ، والحق يكون منتصراً دائماً بالصبر والتضحية وقوة المبادئ ويستطيع هذا الحق أن يهزم كل قوى الظلام المحيطة به دون أن يعتمد في ذلك على أحد ، فمصر قلب العروبة النابض يشكو من الألم فينتقل الأذى إلى سائر الجسد العربي ، وهنا يدخل الشاعر في تناص مع الحديث النبوي المعروف ، وهو توظيف فني في النص

الشعري استطاع المهدي أن يدخله داخل نسيج النص ويربطه ربطاً عضوياً مع بقية الأبيات ، وينتقل الشاعر بعدها إلى وصف حالة الاختلاف بين كيانات الأمة الواحدة ، وي طرح تساؤلاً حول هذه الإشكالية التي عانت منها الأمة وسوف تعاني ، مفاده كيف لهذه الأمة أن تختلف وهي تحمل في أعماقها جوهر الوحدة وكل مقوماتها الفعلية ، وذلك يتمثل في دين التوحيد الذي أستطاع عبر التاريخ أن يوحدنا لحقبة زمنية طويلة ، ويلقي الشاعر اللوم على عدوة الشرق والإسلام (بريطانيا) التي تسعى دوماً إلى تفريق شمل الأمة من خلال إثارة النعرات الطائفية والمذهبية التي تقف في وجه كل محاولات الوحدة العربية الشاملة .

فالشاعر في هذه الأبيات يدعو للعودة إلى الجذور الإسلامية التي وحدت هذه الأمة عبر تأريخها العريق واستطاعت أن تكون مصدراً من مصادر الإشعاع الفكري والثقافي ، والبدل الذي يطرحه الشاعر هنا بعد أن رفض في أبياته السابقة الاعتماد على الفكر الغربي في تحديث المجتمع العربي وتحرره واستقلاله من كافة أنماط الهيمنة السياسية والاقتصادية والفكرية، هو البديل الإسلامي الذي أستطاع عبر التاريخ أن يوحد هذه الأمة في منظومة واحدة بعد أن كانت قبائل متناثرة في جزيرة العرب، وأن ينطلق بها إلى آفاق العالم من خلال الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى أقاصي الهند شرقاً وبلاد الأندلس غرباً ، فالهوية العربية هي الهوية الإسلامية ، التي تستطيع أن توحد الكيانات السياسية للعالم العربي ضمن منظومة سياسية وفكرية واحدة ، والشاعر يستلهم الطروحات التاريخية المتمثلة بالإسلام من أجل معالجة المشاكل السياسية الواقعية المعاصرة ، وهذا ما نلمسه في العديد من الأبيات التي خاطب بها الشاعر الفكر القومي العربي .

ونرى من خلال ذلك إن الوعي القومي عند الشاعر لم يعد وعياً ناقداً لواقع التجزئة العربية وكياناتها الممزقة وحسب ، بل أن الشاعر حاول أن يضع اليد على نقاط الضعف ومواقع القوة للقومية العربية وهي تواجه مرحلة تشكيل الذات والهوية، وحاول الشاعر أن يطرح البديل الملائم في تصوره الذي يعمل على جمع شتات العالم العربي في كيان موحد قادر على مواجهة التحديات المصيرية التي تواجه العالم العربي والإسلامي .

فالوحدة هي الخيار الأوحـد الذي ظل الشاعر يطرحه في أغلب القصائد القومية وهو يخاطب الشعوب العربية في كل الظروف السياسية التي مرت بها، ونراه في قصيدة أخرى يخاطب الجامعة العربية بقوله :

وهاهي الوحدة الكبرى تمثلها في الشرق جامعة أضحى لها شأن
والحب أن صح لم يحتج تبادلـه لأن يقام له بالقول برهـان
لكن من عجب يدعو إلى أسف مصر يقال لها: مصر، وسودان
وهل أفاد سوى تقسيم مملكة مذ قام في سوريا : شام ولبنان (33)

وفي هذه الأبيات يسعى الشاعر إلى تأكيد وعيه القومي عندما يناقش قيام جامعة الدول العربية التي قامت عام 1948 ، وضمت العديد من الأقطار العربية، فالوحدة القومية التي كان الشاعر يطمح في وجودها هي مشروع سياسي كبير ربما تكون نواته الأولى جامعة الدول العربية ، ولكن الشاعر يطمح إلى مشروع أكبر من ذلك ، فهو يتعجب من قيام جامعة الدول العربية ، والأقطار العربية بدأت تعاني انقسامات داخلية مثل مصر والسودان اللتين كانتا إقليميا واحداً ، وكذلك سوريا ولبنان ، فهل أصبحت جامعة الدول العربية مشروعاً سياسياً يحاول أن يكرس واقع التجزئة بدلاً من أن يسعى إلى بناء بذور البناء القومي الشامل؟! فهذه الجامعة لم تحقق الحلم الذي كان الشاعر يتوق إليه، ولذلك لم يكن الشاعر متحمساً لقيامها، وأحس منذ البداية أن المشروعات النظرية ليس هناك فائدة في وجودها إذا لم تتحول إلى واقع سياسي ملموس ترى صداه الشعوب العربية التي تسعى جاهدة في السير على طريق الوحدة الشاملة .

ومن خلال هذه النصوص الشعرية ندرك أن المهدي كان يمتلك وعياً قومياً صادقاً عبرت عنه العديد من القصائد والمقطوعات الشعرية ، وحاول الشاعر من خلال هذه النصوص طرح العديد من الأفكار والرؤى التي كان يراها الشاعر مناسبة لقيام الكيان القومي العربي الواحد ، ولم يقتصر جهد الشاعر على نقد الحالة السياسية التي تركها الاستعمار على الواقع العربي فحسب، بل حاول أن يطرح البديل الملائم الذي يراه مناسباً لحل إشكالية الواقع السياسي العربي الممزق الذي تسعى كل القوى الغربية إلى تثبيتته في ذهن العربي قبل توطيده على الأرض ، ولذلك وعى الشاعر خطورة المرحلة التاريخية وخطورة الصراع الفكري والثقافي مع الآخر ومن هنا نجد أن تركيز الشاعر ينصب

على مسألة مهمة شغلت وجدانه الفكري ، وهي مسألة الوحدة السياسية الشاملة بين الأقطار العربية ، من خلال التركيز على أبرز مقومات الوحدة التي يمكن أن تكون عنصراً فعالاً في تأسيس الوعي القومي العربي الشامل ، داخل ذهنية الأجيال العربية ، فالوحدة العربية كانت حلماً يراود مخيلة الشاعر وإحساسه القومي ، والمشروع القومي نراه متجسداً في العديد من الأبيات والقصائد التي نظمها الشاعر عندما تعرضت الأمة للتحديات التي واجهت كيانها وشخصيتها، وعندما عجز الشاعر عن تحقيق ذلك الحلم الكبير على مستوى الواقع حاول أن يحققه على مستوى النص الشعري .

الهوامش والمصادر

- 1- خليفة محمد التليسي ، رفيق شاعر الوطن ، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس ، 1988 ، ص 39 .
- 2 - د. واصف أبو الشباب ، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت- 1988، ص 16 .
- 3 - المصدر نفسه، ص 176 .
- 4 - ينظر محمد مفتاح، المفاهيم معالم، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 1999، ص 40 .
- 5- التليسي، مصدر سابق، ص 40 .
- 6) التليسي، مصدر سابق، ص 57 .
- 7) -ينظر د. بشير الهاشمي ، دراسات في الأدب الحديث، ط 1، الدار العربية للكتاب، ليبيا_ تونس ، 1984، ص 89-90 .
- 8)-المصدر نفسه ، 92 .
- 9)- ينظر أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط 7، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1982، ص 103 .
- 10)- المصدر نفسه ، 124 .
- 11)-المصدر نفسه، ص 113 .
- 12)- ينظر المصدر نفسه ، 122 .

- (13)- ينظر ناجي علوش، من قضايا التجديد والالتزام في الأدب العربي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا-تونس ، 1978، ص 9 .
- (14)- ينظر المصدر نفسه، ص 13 .
- (15) - ينظر أنور عبد الملك، الفكر العربي في معركة النهضة ، ط 3 ، دار الآداب، بيروت، 1981، ص 34 .
- (16)- د . عماد حاتم، النقد الأدبي وأتجاهاته الحديثة، ط ١، دار الشام للتراث، بيروت ، 1988، ص 38 .
- (17) - ينظر المصدر نفسه، ص 63 .
- (18)- ينظر د . طه الحاجري ، دراسات وصور من تاريخ الحياة الادبية في المغرب العربي، ط ١، دار النهضة العربية، بيروت ، 1983، ص 201 ، وينظر كذلك الطاهر بن عريفة، التعريف بالأدب الليبي، ط ١، دار الحكمة، طرابلس، 1997 ، ص 58 .
- (19)- ينظر د . محمد طه الحاجري ، مصدر سابق، ص 250 .
- (20)- الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، ط ١، مكتبة الفرجاني، طرابلس 1961، ص 59 .
- (21) - ينظر د . محمد طه الحاجري ، مصدر سابق، ص 215-217 وينظر كذلك د . محمد دغيم ، مهرجان رفيق الأدبي، ط ١، منشورات جامعة قارونس ، بنغازي، 1993، ص 29 .
- (22)- ينظر محمد دغيم، مصدر سابق، ص 29 .
- (23)- ينظر الطاهر الزاوي، مصدر سابق، ص 60 ، وينظر كذلك د . محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في ليبيا العربية، ط ١ ، دار الجبل، بيروت ، 1992، ص 39 .
- (24)- ينظر محمد عبد المنعم خفاجي ، مصدر سابق، ص 388 .
- (25)- عبد ربه الغناي، رفيق في الميزان ، ط ١، مكتبة الأندلس، بنغازي، 1967، ص 290 .
- (26)- ينظر الطاهر الزاوي، مصدر سابق، ص 60 .
- (27)- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط 10، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص 126 .
- (28)- خليفة التليسي، مصدر سابق ، ص 134 .
- (29)- المصدر نفسه، ص 144-145 .
- (30)- المصدر نفسه، ص 143 .

(31)-ديوان أحمد رفيق المهدي، الفترتان الأولى والثانية، ط١، الطبعة الأهلية، بنغازي،

(د٠ت)، ص 132-133 .

(32)المصدر نفسه، ص 60 .

(33)- المصدر نفسه، ص 124 .